

الخير والتضامن الإنسانيين من منظور فلسفة جون ديوي

Human goodness and solidarity from the perspective of john dewey's philosophy

غربي سمية*¹

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
22-06-2021	2021-06-01	2020-10-16

ملخص: اهتم جون ديوي بقضايا إنسانية وأخلاقية كمثّل مسألتي الخير والتضامن، إذ يتجلى تصوره لقيمة العمل الإنساني بطابع خيري، وفي حرصه الشديد على إرضاء سيكولوجية الفرد ومصالحته، وتفعيل الجانب الإنساني في الواقع، ويعدّ فعل الخير مساهمة فعالة في تطوير المجتمع، وتحسين مستويات العيش، ويشير ديوي إلى فكرة مفادها أن الحقيقي يعدّ خيرا إذا قدم لنا قيمة نافعة، وفي إطار الخبرة الإنسانية التي تعدّ ركيزة أساسية في فلسفة ديوي مازالت تدعو الحاجة إلى التمسك بها ولاسيما في العصر ما بعد الحداثي وظهور الدعوة إلى التقدم والتغيير وتعزيز الأعمال والأنشطة الإنسانية وكذلك تفعيل الفلسفة في الواقع لحل المشكلات والتفاعل مع متطلبات العصر.

الكلمات المفتاحية: خير؛ تضامن؛ خبرة؛ نسبية؛ حقيقة.

Abstract :John Dewey insisted the urgent necessity of doing good and practicing solidarity, which inspires hope in souls and strengthens social ties. What is not true and false as it is considered evil in the eyes of Dewey, as we find him seeking to establish progress, call for change and build a high society. And the exclusion of the metaphysical aspect that does not serve the interest of the individual.

Key words :goodness ;solidarity ;relativism ;experience ;pragmatism.

- مقدمة:

تميزت فلسفة الأمريكي جون ديوي* بديناميكية واسعة في أوساط الشعوب المثقفة ولاسيما الفكر الأمريكي، وفي العالم الغربي والعربي ككل، إذ يعد ديوي من أبرز فلاسفة البراجماتية الذين قدموا دراسات ومفاهيم أساسية تتماشى والواقع الإنساني، ولعل هذه الدراسات مازالت مستمرة إلى يومنا هذا، ومع متطلبات العصر ما بعد الحداثي، دعت الحاجة إلى التقدم واستبعاد الجوانب الميتافيزيقية وبعث روح الانسجام والإلحاح على التغيير من نمط التفكير القديم، ولعل أهم ما كرس إليه جون ديوي يتمثل في تفعيل الجانب السيكلوجي والتربوي في ميادين شتى، إذ نجده يولي اهتماما بالغاً بميدان الخبرة وقد توصل حرصه الشديد على أهمية الخبرة في المجتمع وسعيه لإعادة بناء الفكر الفلسفي وتعميم النسبية بوصفها معياراً لجميع الأحكام والأفعال التي يصدرها كل فرد من الأفراد، إذ نجد ديوي يقر بأولوية التحسين من الأخلاق البراجماتية وقد اتبع في ذلك أفكار وليم جيمس*، وإضافة الجوانب الإنسانية كمثل التعاون والإيثار وتعزيز قيم الخير في المجتمعات والتسامح بغرض إرضاء الذات، وتعد هذه الركيزة الأساسية التي يدعو إليها ديوي فيما يخص مسألة الخير وغيره من الأعمال الإنسانية المقدمة كمثل التضامن الإنساني ولكن أي تضامن ليرضي مصلحة الذات، وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عن ما مدى تفعيل جون ديوي لفكرة الخير والتضامن بوصفهما أعمالاً إنسانية وسلوكية مرضية تحت إطار ما يسمى بالخبرة؟ وما هو غرض جون ديوي من مسألتي الخير والتضامن الإنسانيين؟ هل كل ما هو حقيقي يعد خيراً؟ وكل ما هو زائف لا يدعو إلى نتيجة إيجابية ويعد شراً في نظر ديوي؟ إلى أي مدى توصل ديوي بفكرته عن الخير والتضامن؟

1.1 ربط فكرة الخير والتضامن بتحقيق السعادة:

اتفقت الآراء والتفسيرات لكل من فكرتي الخير والتضامن الإنسانيين على أنهما من الأفكار الإيجابية وتعد مصدر كل ما هو مفيد ونافع، وذلك بمصلحة جميع الذات وتحقيق الطيبة والسعادة في الواقع، وبفضل الأعمال الإنسانية يتم الانسجام والتواصل بين أطراف المجتمعات (جميل، 1982، ص54)، وهذا ما يقر به جون ديوي حين رأى أن التضامن وفعل الخير يحققان السعادة، وقد تجلّى ذلك في قوله: "ويجب البحث في الأخلاق عن الغايات النبيلة والأشياء الخيرة فربط بعضهم الخير بتحقيق الذات، وبعضهم بالطهارة وبعضهم بالسعادة، وبعضهم بالحصول على أكبر قدر من السعادة، وبالتالي اتفقت هذه المدارس على وجود خير واحد ونهائي ومحدد، وكان ارتباطهم بهذا الهدف المحدد وانطلاقهم من مقدمة واحدة سبباً في الخلافات التي ظهرت بينهم". (جون، 2010، ص145)

تجدر الإشارة على أن جون ديوي يركز على واقعية الفكر والعمل، ويتبع بالتحليل تلك الرابطة التي تحمل نتيجة الأفكار ذات المعنى الهادف بنتيجة صدق الكلام، وما ينتج من خير، إذ يرى أنه لا بد وأن نسعى إلى الاحتفاظ بالأفكار البناءة التي تدعو بنا إلى التقدم، وإلى حسن التعامل مع الآخر، (زكي، 1990، ص186) وفي هذا الصدد يتساءل جون ديوي بخصوص كل من فكرة الخير والتضامن بقوله: "ألا يتطلب هذا التطبيق أن نتحول إلى الاعتقاد في تعدد الحالات الخيرة والغايات وتغيرها، وإلى الإيمان بأن المبادئ والمعايير عبارة عن أدوات

عقلية لتحليل المواقف الفردية الفريدة؟ لا يوصف القول أن كل موقف أخلاقي يكون فريدا ولا يمكن تبديل الخير الناتج عنه بأنه قول خاطئ أو فظ وإنما بأنه قول منافي للآداب "(جون، 2010، ص146). يشير جون ديوي بتصريحه إلى ربط مسألة الفضائل الأخلاقية بعدة جوانب من المعرفة والحياة ، ويرى فيها استمرارية لتحسين مستويات العيش المشترك ، وتقديم ما هو أفضل في محيط يسوده الأمل والاندفاع نحو التغيير ، ويعد هذا العمل الإنساني ضربا من ضروب الفن في إحدى مظاهره وأن الخير ممارسة لنوع من الفن ، والمساهمة في هذا الصنع يعد خبرة جمالية فعالة في المحيط البيئي ، وأحد الخطوات التي تقضي في النهاية إلى بروز قيمة من القيم الإنسانية والأخلاقية ويرى ديوي أن التحلي بصفة العطف نحو الآخر قد يختلف من شخص لآخر وذلك باعتبار أفراد المجتمع مختلفين في الصفات والطباع وأنه لا بد على كل فرد أن يتحلى بالارادة كي يخطو خطوات نحو التقدم ولا بد من أن يفرضي إلى قيمة من القيم لمواجهة مشاكله في الواقع إذ لا بد عليه أن يتجاوز الأفكار القديمة ويتخلص من الأفكار التي تحمل نوعا من الرتابة ولا تبعث للأمل والتحلي بصفات الخير وكل ما يفرضي إلى نتيجة حسنة وجيدة تلائم مصلحة الفرد والغير. (مجدي، 2016، ص112).

2.1 الأثر السيكولوجي على وظيفة العقل الأداتي وتوجيه السلوك:

يصرح جون ديوي قائلا: "إن في الأخلاق يبدو أن الكمال المطلق أكثر من تشخيص معمم للاعتراف بأن ثمة خيرا يجب طلبه ، والتزاما يجب التقيد به وكلاهما من الأمور المحسوسة . وليس النقص في هذا الصدد مجرد مسألة سلبية "(جون، 2015، ص293) نجد أن جون ديوي يهتم بالجانب السيكولوجي للأفراد ، ويوجه إسهاما فعالا للجانب التربوي والأخلاقي ، وكونه متأثر بعادات المجتمع الأمريكي يسعى الى تعزيز الأعمال الإنسانية الخيرة التي تدعو إلى التقدم ، ويستبعد في ذلك الجانب الميتافيزيقي (أحمد فؤاد، 1968، ص92)، إذ يستوقف ديوي لركيزة أساسية المعنى الذي يصاحبه الغرض ، حيث يرى أن رغبتنا في الأمور قد تشكل تغيير جذريا لما نحن عليه ، ومنها قد تنتج قيما على سبيل التعامل والتواصل ، ولم يقتصر جون ديوي بموقفه هذا عن الاهتمام بالجوانب النفسية للفرد هذه النقطة انطلاقا من وليم جيمس واتبعه في ذلك ديوي (kappa,...,p30) وإنما ركز جل البراجماتيون على ، وأقاموا للتجربة وزنا

إلا أنه قد أضفى لفكرة الخير عدة مناحي إذ نجده يستدرج الأعمال الإنسانية الخالصة بإطار التربية وبخصوص التعليم إذ يرى أنه خيرا لكافة الشعوب وسبيل لتطويرها ويعد طريقة أساسية للتقدم الاجتماعي وإصلاح الأمم" (stéphan, 2009, p09)

إذ يقول جون ديوي عن بناء الخير: "إن الشعور بخير أو حسن أمر بعيد عن الخير في الواقع كما يبتعد الشعور في الأشياء التي نتصورها فكريا ، فالاعتراف أن حقيقة الأشياء الطبيعية لا يمكن أن نبلغها إلا بأعظم عناية في اختيار العمليات الموجهة وترتيبها ، ثم افتراض أن القيم يمكن تحديدها" (جون، 2015، ص294)

يرى ديوي أن الخير لا يتحقق بصفة مطلقة ، وباختلاف الأمزجة الإنسانية قد تتنوع الأمور الخيرية، إلا أنها تتشابه في أثرها النفعي، وبالتالي فإن الخير هو معيار لكل سلوك جيد وفعال.

3.1 الفعل الحقيقي بوصفه مظهرا من مظاهر الخير:

نظرا لتأثر جون ديوي بالعلوم الطبيعية نجده يضيف طابعا علميا للمسائل الأخلاقية ، ففي نظره أن كل قيمة خلقية لابد وأن تخضع لجملة من الخبرات ،حين نمارس بعض الفضائل كمثل الخير ، ويقابله الشر في نظره تجربة سيئة لابد وأن يدرك نتيجتها الفرد وأن يقتفي غثرها ، وحينها لا يمكن لأي فرد أن يكرر ما لا ينفعه وهذه نتيجة استطرادية ، إذ لابد من تفعيل الجانب المادي وإحياء القيم الأدائية والتغلب على الغموض ، فالحقيقي يعد مظهر من مظاهر الخير (بوشنسكي، 1990، ص162) إذ يرى ديوي أن معيار الحقيقة هو الذي ينتهي بالأثر النفعي هو معيار لكل خير أسمى وتهديم لعراقل حركات الفكر الأداتي (مجموعة من الأكاديميين العرب، 2013، ص343) ويتضح ان الدافع الذي يرمي إليه حول مسألة الحقيقي الذي يعد خيرا في حد ذاته قد يعد هدفا سلوكيا في الواقع ، إلا أنه قابل للتغيير أي يمكن أن يتغير إلى الصواب أو الخطأ بمعنى قد يتحول من خير إلى شر والعكس (مجدي، 2016، ص114)

ما يسعى إليه ديوي من خلال ربطه لفكرة الخبرة الإنسانية بالعمل الخير ، باعتباره يحل المشكلات الفلسفية والأخلاقية ، إلا أن ذلك يتطلب بحثا عن حقيقة الفعل الذي يراه ديوي يقاس بمقدار ما تنتجه أفعالنا ، فإذا أنتجت خيرا فذلك هو الفعل الحق والصواب وهذا ما يحل إشكالاتنا ، ويبدو أن ديوي يواصل فكرة الحقيقة عن سابقه أمثال وليم جيمس واتخاذ الأثر النفعي معيار لكل حق (مهران، 1984، ص67)

يصرح ديوي قائلا: " فالرغبة والغرض والعمل تبعا لذلك تترك بغير إرشاد، مع أن مسألة تنظيم تكوينها هي المشكلة القصوى في الحياة العملية ،صفوة القول القيم قد ترتبط بالطبع بالمحبة ، ولكنها لن ترتبط بكل محبة ،بل فقط بتلك التي وافق الحكم عليها بعد فحص العلاقة التي يعتمد عليها الشيء المحبوب (جون، 2015، ص292) ويستدل من هذا القول على أن أي نشاط عملي وفكري يحفز الأفراد في عالم الخبرة والواقع حتى تتم عملية التفاعل مع القيم السامية التي تعمل على تطوير المجتمعات ، ولابد من الاعتراف بالإسهامات و التضامانات التي يصدرها الآخرون وهو حق جدير لابد من الاعتراف به على سبيل الثناء للغير (سعيد، 1990، ص65) يصر جون ديوي على بعث روح الأمل والتفاؤل في المجتمعات ولاسيما المجتمع الأمريكي ، ويؤكد في ذلك على إبراز خصائص إنسانية الإنسان إذ لابد من التحلي بسمه التعاون وفعل الخير ، ويرى ديوي أن الفضائل الأخلاقية تعمل على تغيير المجتمع على نحو أفضل ، وأكثر انسجاما واستمرارية ، وهذا السبيل يقتضي ممارسة الأنشطة الفعالة لحل مشاكل الحياة ، والتغلب على التزيف الصارخ للأشياء ، والتحلي بقيم سامية، كما أن القيام بأعمال ترضي المجتمعات وتخفف من حدة الضغوطات في الحياة قد تفتح آفاقا واسعة وتطلعات في شتى الميادين والجوانب، وفي إطار توفير حرية التعامل والتعبير يستدرج ديوي عدة إمكانات يتغلب فيها الخير على الشر وذلك من خلال تأدية بعض المهام والمفاهيم المتشابهة فيما بينها من خلال غرس روح التعاون والذي بصده يفتح طريقا أمام الحوار والتبادل الثقافي ويعم الانفتاح أكثر على ثقافات العالم ، ويمثل كل من الخير والتعاون وأعمال الإنسانية الحسنة سبيلا للمشاركة الاجتماعية والاقتصادية والسياسة وغيرها . (مجموعة من الأكاديميين العرب، 2013، ص343)

4.1 دور التربية والخبرة في تحقيق السلوك الحسن:

يرى ديوي أن التربية تنحصر في القيم الخيرية ،وخضوعها للتجربة يعبر عن مدى استمرارية الفعل الخيري ، وكون التربية توجع السلوك وتضبطه في مختلف المراحل من الحياة قد تدلنا إلى طريق أوسع حين نمارس الديمقراطية ولعل هذا الجانب التربوي يمثل حسن التعامل كي يتسنى للفرد حرية الانسجام والتماسك الاجتماعي ، وفي هذا الصدد يقول ديوي "القيم السامية هي قيم لأشياء لها مباشرة بعض الخصائص الباطنية ذاتها ، وقيمة الخير في قيمة المنفعة وكون الأثر النفعي معيار لكل سلوك خير ، (john,1925,p336)"

إن مبدأي الاستمرارية والتفاعل كمعيارين لقيمة الخبرات مرتبطان ارتباطا وثيقا ، بحيث يصعب تحديد المشكلة التعليمية الخاصة التي يجب تناولها (kappa,...,p21)

5.1 الدعوة إلى التكافل والانسجام الاجتماعي:

يحاول جون ديوي معالجة الأمور الإنسانية في إطار تجريبي ن إذ أنه في منظور ديوي لا بد على الإنسان أن يمارس الخبرة في مختلف أعماله حتى يتبين حقيقة الفعل الذي يرضي نفسه بالدرجة الأولى ويرضي غيره ، وحتى يتم الرضا والانسجام بين أفراد المجتمع ، ويسود النظام المتاح بين مختلف فئات المجتمع ، والخبرة هي الصورة التعبيرية لممارسة الخير ، وتتغير جميع القوى التي تساعد الفرد على الإبداع في ابتكار الأعمال الصالحة ، وهذا الموقف الايجابي يغير من النفوس السلبية (سعيد، 1990، ص 64)

يتتبع ديوي فرصة النجاح والنتائج المثمرة التي يصدرها العقل والفعل حين تتوفر الجهود النفسية على الدعم من الراحة والقدرة على التحلي بما هو أنسب ، والرضا بما تفكر فيه وما تنتجه ، وحتى يصبح العمل صادرا بتدبر وقناعة في مختلف جوانب المعرفة ، ولذلك تبقى الخبرة الإنسانية بمثابة السلطة الفعالة التي يعتمد عليها في شتى الميادين ، وقد يكون لأي فكرة في نظر ديوي دلالة معرفة تقوم في أساسها على الخير وبعث الأمل في نفوس الأفراد وقد تمدنا بنتائج أفضل ، وتمنحنا قوة للتماسك الاجتماعي (احمد فؤاد، 1968، نص 64) ومع ذلك يمكن لأي فرد أن يربط أهدافه بمنعطف أخلاقي رفيع ويركز على جودة العمل دون المغالاة في راديكالية الفكرة الماضية ويركز بكل جداره على حاضره ، ويمارس نشاطه بكل فاعلية ، ومثل هذا الاقتراح الذي يمكن أن يتخيله شخص معين ، تماما كمثل الذي يتخيله طرف آخر يربط مصير أفعاله بما يقدمه للمستقبل (Etienne,2013,p27)

خاتمة: إن الدعوة التي يرمي إليها جون ديوي تكمن في إصراره على المبادئ الأخلاقية من خير أسمى لتحقيق غايات ، والبلوغ إلى مقاصد تبعث للروح الإنسانية الأمل وتدعو إلى التقدم ، وبعث السعادة في النفوس البشرية ، إلا أن ما يقره ديوي هو أن فعل الخير لا يتأتى إلا حين تخضع أفعالنا لجملة من الخبرات والتجارب في الواقع ، ولعل أهم دافع يتمسك به ديوي هو الكيفية التي يمكن أن نحقق بها الخير لنفوسنا وللغير ، وإن نشكل بالعقل الأدائي جملة من التصرفات التي تحمل خيرا ومساعدة للطرف الآخر و التي تمليها علينا سلوكاتنا ، وهذا السبيل يعبر عن

إرضاء الجانب السيكولوجي للفرد يعبر عن حقيقة براجماتية وموقف نسبي لما هو نافع وخير ودعوة لتحسين السلوك أيا كان ولاسيما السلوك التربوي الذي يعد الركيزة الأساسية للعصور الحالية وكذلك تعزيز أواصر المجتمعات وبعث الثقة والأمل وإحياء الإرادة وتقوية التماسك والتواصل على سبيل التعامل مع الآخر.

المراجع:

- 1- ديوي جون ،(2015)اليقين،ترجمة:أحمد فؤاد الأهواني،د(ط)،القاهرة،المركز القومي للترجمة.
- 2- ديوي جون،(2010)إعادة البناء في الفلسفة،ط1،القاهرةالمشروع القومي للترجمة والنشر والتوزيع.
- 3-الأهواني أحمد فؤاد ،(1968)جون ديوي نوابغ الفكر الغربي،ط3،القاهرة،دار المعارف للنشر .
- 4-إ.م بوشنسكي ،(1990)الفلسفة المعاصرة في أوربا ،ترجمة:عزت قرني،د(ط)،الكويت،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- 5-ديلودال جيرارد ،(2009)الفلسفة الأمريكية،ترجمة:جورج كتورة ،ط1،بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية للنشر .
- 6-رشوان مهران ،(1984)مدخل إلى الفلسفة المعاصرة،د(ط)،القاهرة،دار الثقافة للنشر والتوزيع
- 7-علي سعيد إسماعيل ،(1990) فلسفات تربوية معاصرة،د(ط)،الكويت،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- 8-كامل مجدي (2016)البراجماتية..تعريفها..نشأتها..أشهر أعلامها وموقفها من السياسة والأخلاق والدين،د(ط)،دمشق،القاهرة،دار الكتاب العربي.
- 9-نجيب محمود زكي ،(1990) نافذة على فلسفة العصر،د(ط)،الكويت،كتاب العربي للنشر
- 10-صليبيا جميل ،(1982)المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية ،ج1، دمشق،بيروت دار الكتاب اللبناني للنشر .
- 11-مجموعة من الأكاديميين العرب،(2013)موسوعة الأبحاث الفلسفية للرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة،الفلسفة الغربية المعاصرة،صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشجير المزدوج ج1 ، ط1،الرباط ،منشورات صفاف .
- 12-bourgeois étienne ,(2013)experience et apprentissage ,paris,la contribution de john dewey,press universitaire de France
- 13-dewey John,(1925)experience and nature , chicago london publishing company .
- 14-delta Kappa,(..)experience and education John dewey,publications,n03.
- 15-galetic Stéphan,(2009)john dewey et la pédagogie par l'expérience ,philocité,paris,.

الملاحق:

*جون ديوي فيلسوف أمريكي، من أبرز مؤسسي الفلسفة البراجماتية، (ولد في 1859، ت. 1952)، تلقى تعليمه بأمريكا واشتغل حينها بتدريس الفلسفة بجامعة كولومبيا واتبع في ذلك أفكار تشارلز بيرس ووليم جيمس، وكان متأثراً بثقافة مجتمعه، مما جعله يولي اهتماماً بالجانب التربوي والتعليمي، ورأى أن هذا الأخير سبيل للتقدم، كما اهتم ديوي بمجال العلوم الطبيعية، كما درس دون ديوي عدة فلسفات كالفسفة المثالية الحديثة، وفي الوقت نفسه سعى لمهاجمة الأفكار الميتافيزيقية، وله عدة أعمال ودراسات فلسفية منها مؤلفة عن: المدرسة والمجتمع، الطفل والمنهج، الديمقراطية والتربية، الخبرة والتربية، كيف نفكر، الطبيعة البشرية والتربية ومؤلفه بعنوان اليقين، وإعادة البناء في الفلسفة وغيرها من المؤلفات.

*وليم جيمس فيلسوف أمريكي اهتم بالجانب السيكولوجي للفرد، من المؤسسين الأوائل للفلسفة البراجماتية، يعد فيلسوفا وطبيباً في علم النفس وفي تخصص علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، له مؤلفات عديدة ولعل أهمها كتابه عن البراجماتية ومؤلفات أخرى بعنوان: -مبادئ في علم النفس- إرادة الاعتقاد- الكون المتعدد- معنى الحقيقة- بعض قضايا الفلسفة- مباحث في المذهب التجريبي الراديكالي -مثل الحياة وله كتاب يضم الفلسفة والتشريح والتحليل النفسي، ثم بدأت مؤلفاته تتوالى من عام 1900، ومعظمها تشمل مجال الفلسفة وبقي في التدريس إلى حين وفاته سنة 1910.